لو تأملنا خواتيم سورة النحل لوجدناها مقدمة طبيعية لأحداث سورة الإسراء[1] ، ولوجدنا توافقاً وتناسباً فى ترتيب هاتين السورتين ، فقد خُتِمَتْ النحل ببيان حُكْم رَدِّ العقوبة بمثلها ، ثم أمرت رسول الله ﷺ بالصبر وبيَّنَتْ جزاء الصابرين ، ونهَتْ رسول الله عن الضيق من مكْر الكفار .

نستشف من هذا أن رسول الله ﷺ سيستقبل أحداثاً تحتاج إلى صبر وشدائد ، تحتاج إلى سعة صدر ، وكأن هذه التوجيهات جاءت بمثابة مناعات إيمانية ، تُحصِّن رسول الله وتُعِدّه لما هو مُقبل عليه من أحداث فى سورة الإسراء ، وكأنها إشارات لما سيحدث من شدائد حتى لا يُفاجأ رسول الله بها ، ولا تأتيه على غِرَّة .

هذه المناعات التى جاءت فى نهاية سورة النحل أشبه بما نلجأ إليه فى حِفْظ سلامة البنية وسلامة القالب ، حينما نخاف من

---

(١) سورة الإسراء ، هى السورة (١٧) فى ترتيب المصحف ، وعدد آياتها (١١١) آية . وهى سورة مكية ، إلا ثلاث آيات :

– قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ..(٦٠)﴾ [الإسراء]

– قوله تعالى : ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً (٧٦)﴾ [الإسراء]

– قوله تعالى : ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا (٨٠)﴾ [الإسراء]

وببدايتها يبدأ الجزء (١٥) من القرآن .

ولسورة الإسراء أسماء أخرى . منها : سورة سبحان ، سورة بنى إسرائيل .

الأمراض ، إنه ما نسميه بالتطعيم ضد المرض ، فيأخذ الجسم من هذا الطُّعْم حصانة تحميه إذا هاجمه المرض .

كذلك الحق سبحانه وتعالى يُعطى رسوله هذه التحصينات ، حتى يواجه الأحداث والشدائد القادمة بصبر وجَلَد ، ويعلم أن الله تعالى لن يخذله ، ولن يتخلى عنه ، فما أرسل الله رسولاً وخذله أبداً ، فإنْ خذله الناس ، وضاقتْ عليه الدنيا بما رَحُبَتْ وجد الملجأ فى معيته سبحانه وتعالى .

وفعلاً نزلت الشدائد برسول الله ﷺ ، وكانت قمة هذه الأحداث عند فَقْد عمه أبى طالب ، وزَوْجه خديجة فى عام واحد ، ولقسوة هذا عليه سماه « عام الحزن » .

ففقد ﷺ بموت عمه الحماية الخارجية التى كانت تدفع عنه أذى المشركين ، وتصد عنه صناديد قريش ، وفقد بموت زوجته الحماية الداخلية والملجأ الذى كان يأوى إليه ، حيث كانت تواسيه وتُهدِّىء من رَوْعه فى أول نزول الوحى عليه . وتُبيِّن له بفقه أن ما يجده فى الغار من علامات النبوة ، وأن الله لن يتخلى عنه وتقول له : « والله إنك لَتصلُ الرحم ، وتغيث الملهوف ، وتحمل الكَلّ(1) ، وتعين على نوائب الدهر »(2)

نعم لقد كان عام حزن فعلاً ، فقد فيه السكن الخارجى والداخلى معاً ، فأين يذهب ﷺ .

فما عاد يشعر بأمْن فى مكة ، ففكّر فى أهل الطائف ، عَسَاه يجد الأمن والأمان بينهم ، ولكنه كان كالمستجير من الرمضاء بالنار ، فقد

(١) الكَلّ : الذى هو عيال وثقل على صاحبه . والكَلُّ : اليتيم . [اللسان - مادة : كلل] .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣) من حديث عائشة رضى الله عنها فى كتاب بدء الوحى .

آذوه أشد الإيذاء ، وقذفوه بالحجارة حتى أدْمَوْا قدمه الشريفة ، وأغرَوْا به صبيانهم وسفهاءهم ، وعاد منها حزيناً مُنكسراً إلى مكة مرة أخرى ، فلم يجد مَنْ يجيره إلا مطعم بن عدى .

ومن هنا نعلم أن نهايات سورة النحل جاءت في موقعها المناسب ، وكأن الحق سبحانه يقول لنبيه ﷺ : لقد ضاقتْ عليك الأرض بما رَحُبَتْ ، وضاقت عليك نفسك ، ولكن ملجأك إلى الله سيُريك أن قسوة الأرض وتجهُّم الحياة لك سأُبدلك به تحية مباركة ، في أن أُريك حفاوة السماء بك ، فبعد ما حدث لك في مكة والطائف :

﴿وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨)﴾ [النحل]

وجاء حادث الإسراء والمعراج ليرى رسول الله ﷺ حفاوة الملأ الأعلى بعد ما أصابه من أذى البشر ، وقبل أن يرى رسول الله حفاوة السماء غيَّر الله له نظام الكون ، فقال تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)﴾

استهل الحق سبحانه هذه السورة بقوله (سُبْحَانَ) ؛ لأنها تتحدث عن حدث عظيم خارق للعادة ، ومعنى سبحان : أي تنزيهاً لله تعالى تنزيهاً مطلقاً ، أن يكون له شبيه أو مثيل فيما خلق ، لا في

الذات ، فلا ذاتَ كذاته ، ولا فى الصفات فلا صفات كصفات ، ولا فى الأفعال ، فليس فى أفعال خَلْقه ما يُشبه أفعاله تعالى .

فإن قيل لك : الله موجود وأنت موجود ، فنزِّه الله أن يكون وجوده كوجودك ؛ لأن وجودك عن عدم ، وليس ذاتياً فيك ، ووجوده سبحانه ليس عن عدم ، وهو ذاتى فيه سبحانه .

فذاته سبحانه لا مثيلَ لها ، ولا شبيه فى ذوات خلقه . وكذلك إن قيل : لك سَمْع ولله سمع . فنزِّه الله أنْ يُشابه سمعُه سمعَك ، وإن قيل : لك فِعْل ، ولله فعْل فنزِّه الله أن يكون فعله كفعلك .

ومن معانى (سُبْحَان) أى : أتعجب من قدرة الله .

إذن : كلمة (سُبْحَان) جاءت هنا لتشير إلى أنَّ ما بعدها أمرٌ خارج عن نطاق قدرات البشر ، فإذا ما سمعتَه إياك أنْ تعترضَ أو تقول : كيف يحدث هذا ؟ بل نزِّه الله أن يُشابه فعلُه فعْلَ البشر ، فإن قال لك : إنه أسرى بنبيه محمد ﷺ من مكة إلى بيتَ المقدس فى ليلة ، مع أنهم يضربون إليها أكباد الإبل شهراً ، فإياك أن تنكر .

فربك لم يقُلْ : سَرَى محمد ، بل أُسْرِى به . فالفعل ليس لمحمد ولكنه لله ، وما دام الفعل لله فلا تُخضعْه لمقاييس الزمن لديك ، ففعْل الله ليس علاجاً ومزاولة كفعل البشر .

ولو تأملنا كلمة (سُبْحَان) نجدها فى الأشياء التى ضاقتْ فيها العقول ، وتحيَّرتْ فى إدراكها وفى الأشياء العجيبة ، مثل قوله تعالى :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾ [يس]

فالأزواج أى : الزوجين الذكر والأنثى ، ومنهما يتم التكاثر فى النبات ، وفى الإنسان وقد فسر لنا العلم الحديث قوله : ﴿وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾ بما توصّل إليه من اكتشاف الذرة والكهرباء ، وأن فيهما السالب والموجب الذى يساوى الذكر والأنثى ؛ لذلك قال تعالى :

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات]

ومنها قوله تعالى :

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ..﴿١٧﴾﴾ [الروم]

فَمَنْ يطالع صفحة الكون عند شروق الشمس وعند غروبها ، ويرى كيف يحُلُّ الظلام محلّ الضياء ، أو الضياء محل الظلام ، لا يملك أمام هذه الآية إلا أن يقول : سبحان الله .

ومنها قوله تعالى :

﴿سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ[1] ﴿١٣﴾﴾ [الزخرف]

هذه كلها أمور عجيبة ، لا يقدر عليها إلا الله ، وردتْ فيها كلمة (سبحان) فى خلال السور وفى طيّات الآيات .

و (سُبْحَان) اسم يدلُّ على الثبوت والدوام ، فكأن تنزيه الله موجود وثابت له سبحانه قبل أن يوجد المنزِّه ، كما نقول فى الخلق ، فالله خالق ومُتصف بهذه الصفة قبل أنْ يخلق شيئاً .

وكما تقول : فلان شاعر ، فهو شاعر قبل أن يقول القصيدة ، فلو لم يكن شاعراً ما قالها .

---

(١) أقرن الشيء : قدر عليه وأطاقه وأخضعه وسخَّره ، كأنه مع آخر فى قرن واحد . [القاموس القويم ٢/١١٤] .

إذن : تنزيه الله ثابت له قبل أن يوجد مَنْ يُنزِّهه سبحانه ، فإذا وُجد المنزِّه تحوَّل الأسلوب من الاسم إلى الفعل ، فقال سبحانه :

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ① ﴾ [الحشر]

وهل سبَّح وسكت وانتهى التسبيح ؟ لا ، بل :

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. ① ﴾ [الجمعة]

على سبيل الدوام والاستمرار ، وما دام الأمر كذلك والتسبيح ثابت له ، وتُسبِّح له الكائنات في الماضي والحاضر ، فلا تتقاعس أنت أيُّها المكلَّف عن تسبيح ربك ، يقول تعالى :

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ① ﴾ [الأعلى]

وقوله : (أسْرى) من السُّرى ، وهو السير ليلاً ، وفي الحِكَم : (عند الصباح يحمَدُ القوْمُ السُّرى) .

فالحق سبحانه أسرى بعبد ، فالفعل لله تعالى ، وليس لمحمد ﷺ فلا تَقِسْ الفعل بمقياس البشر ، ونزِّه فعْل الله عن فعْلك ، وقد استقبل أهل مكة هذا الحدث استقبال المكذِّب . فقالوا : كيف هذا ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ، وهم كاذبون في قولهم ؛ لأن رسول الله لم يَدَّعِ أنه سَرَى بل قال : أُسْرِي بي .

ومعلوم أن قَطْع المسافات يأخذ من الزمن على قدر عكس القوة المتمثلة في السرعة . أي : أن الزمن يتناسب عكسياً مع القوة ، فلو أردنا مثلاً الذهاب إلى الأسكندرية سيختلف الزمن لو سِرْنا على الأقدام عنه إذا ركبنا سيارة أو طائرة ، فكلما زادت القوة قَلَّ الزمن ،

فمـا بالك لو نسب الفعل والسـرعة إلى الله تعالى ، إذا كـان الفعل من الله فلا زمن .

فإنْ قـال قائل : مـادام الفعل مع الله لا يحـتاج إلى زمن ، لـماذا لم يَأْتِ الإسراء لمحةً فحسْب ، ولماذا استغرق ليلة ؟

نقول : لأن هناك فـرْقاً بين قطْع المـسافات بقـانون الله سبـحانه وبين مَرَاءٍ عُرِضَتْ على النبى ﷺ فـى الطريق ، فرأى مواقف ، وتكلَّم مع أشخاصٍ ، ورأى آيات وعجائب ، هذه هى التى استغرقت الزمن .

وقلنا : إنك حين تنسب الفعل إلى فاعله يجب أن تعطيه من الزمن على قَـدْر قـوة الفـاعل . هَبْ أن قـائلاً قـال لك : أنا صـعـدتُ بابنى الرضـيع قـمة جـبل « إفـرست » ، هل تقـول له : كيف صـعـد ابنك الرضيع قمة « إفرست » ؟

هذا سـؤال إذن فى غـيـر مـحلِّه ، وكـذلك فى مـسـألة الإسـراء والمعراج يقول تعالى : أنا أسريتُ بعبدى ، فمن أراد أنْ يُحيل المسألة ويُنكرها ، فليعترض على الله صاحب الفعل لا على محمد .

لكن كيف فاتتْ هذه القضية على كفار مكة ؟

ومن تكذيب كفار مكة لرسول الله ﷺ فى رحلة الإسراء والمعراج نأخذ ردّاً جـميلاً على هؤلاء الذين يخـوضون فى هذا الحادث بعـقول ضيـقة وبإيمـانية سطحـية فى عـصرنا الحاضـر ، فيطالعـونا بأفكار سقيمة ما أنزل الله بها من سلطانٍ .

ونسمع منهم مَنْ يقـول : إن الإسراء كان منَامـاً ، أو كان بالروح دون الجسد .

ونقول لـهؤلاء : لو قال مـحمـد لقومـه : أنا رأيتُ فى الرؤيا بيت المقدس ، هل كانوا يُكذّبونه ؟ ولو قال لهم : لقد سبحتْ روحى الليلة حـتى أتتْ بيت المـقدس ، أكـانوا يُكذّبونه ؟ أتُكـذَّب الرّؤى أو حركـة الأرواح ؟!

إذن : فى إنكار الكفـار على رسول الله وتكذيبـهم له دليل على أن الإسراء كان حقيقة تمت لرسول الله ﷺ برُوحه وجسده ، وكأن الحق سبحـانه ادَّخر الموقف التكذيبى لمكـذبى الأمس ، ليردّ به على مُكذّبى اليوم .

وقوله سبحانه :

﴿ بِعَبْدِهِ .. ۝١ ﴾ [الإسراء]

العبد كلمة تُطلق على الروح والجسد معاً ، هذا مدلولها ، لا يمكن أن تُطلَق على الروح فقط .

لكن ، لماذا اختار الحق سبحانه لرسوله ﷺ هذه الصفة بالذات ؟

نقول : لأن الله تعـالى جعل فى الكون قـانوناً عامـاً للناس ، وقد يُخـرَق هذا القانون أو النامـوس العام ليكون مـعجـزةً للخاصـة الذين مـيّـزهم الله عن سـائر الخَلْق ، فكأن كلـمة (عـبـده) هى حـيـثـيـة الإسـراء .

أى : أُسْرِى به ؛ لأنه صادق العـبودية لله ، ومادام هو عبـده فقد أخلص فى عبوديته لربه ، فاستحق أنْ يكون له مَيْزة وخصوصية عن غيره ، فالإسـراء والمعراج عطاء من الله استحقّـه رسوله بما حقّق من عبودية لله .

وفَرْق بين العبودية لله والعبودية للبشر ، فالعبودية لله عزٌّ وشرف يأخذ بها العبدُ خَيْرَ سيده ، وقال الشاعر :

وَمِمَّا زَادَنى شَرَفاً وَعِزّاً وكِدْتُ بأخْمُصِى أطَأ الثُّريَّا
دُخُولِى تَحْتَ قولِكَ يَا عِبَادِى وَأنْ صَيَّرت أحمدَ لِى نبيّا

أما عبودية البشر للبشر فنقْصٌ ومذلَّة وهوان ، حيث يأخذ السيد خَيْر عبده ، ويحرمه ثمرة كَدِّه .

لذلك ، فالمتتبِّع لآيات القرآن يجد أن العبودية لا تأتى إلا فى المواقف العظيمة مثل :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ.. (١) ﴾ [الإسراء]

وقوله : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ.. (١٩) ﴾ [الجن]

ويكفيك عزّاً وكرامة أنك إذا أردتَ مقابلة سيدك أن يكون الأمر فى يدك ، فما عليك إلا أنْ تتوضأ وتنوى المقابلة قائلاً : الله أكبر ، فتكون فى معية الله عز وجل فى لقاء تحدد أنت مكانه وموعده ومُدّته ، وتختار أنت موضوع المقابلة ، وتظل فى حضرة ربك إلى أن تنهى المقابلة متى أردتَ .

وما أحسنَ مَا قال الشاعر :

حَسْبُ نَفْسى عِزّاً بأنّى عَبْدٌ يَحْتَفى بى بِلاَ مَواعِيدَ رَبُّ
هُوَ فى قُدْسِهِ الأعَزُّ ولكنْ أنَا ألْقَى مَتَى وَأيْنَ أحِبُّ

فما بالك لو حاولت لقاء عظيم من عظماء الدنيا ؟ وكم أنت مُلاقٍ من المشقة والعنت ؟ وكم دونه من الحجّاب والحرّاس ؟ ثم بعد ذلك ليس لك أن تختار لا الزمان ولا المكان ، ولا الموضوع ولا غيره .

وقد كان الرسول ﷺ وهو المتخلِّق بأخلاق الله إذا سلَّم على أحد لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل هو الذى ينزع يده[(١)] .

وقوله : ﴿لَيْلاً..(١)﴾ [الإسراء]

سبق أن قُلْنا : إن السُّرى هو السير ليلاً ، فكانت هذه كافية للدلالة على وقوع الحدث ليلاً ، ولكن الحق سبحانه أراد أنْ يؤكد ذلك ، فقد يقول قائل : لماذا لم يحدث الإسراء نهاراً ؟

نقول : حدث الإسراء ليلاً ، لتظلَّ المعجزة غَيْباً يؤمن به مَنْ يصدق رسول الله ﷺ ، فلو ذهب فى النهار لرآه الناس فى الطريق ذهاباً وعودة ، فتكون المسألة - إذن - حسِّية مشاهدة لا مجالَ فيها للإيمان بالغيب .

لذلك لما سمع أبو جهل خبر الإسراء طار به إلى المسجد وقال : إن صاحبكم يزعم أنه أُسْرى به الليلة من مكة إلى بيت المقدس ، فمنهم مَنْ قلَّب كفَّيْه تعجُّباً ، ومنهم مَنْ أنكر ، ومنهم مَن ارتد .

أما الصِّدِّيق أبو بكر فقد استقبل الخبر استقبالَ المؤمن المصدِّق ، ومن هذا الموقف سُمِّى الصديق ، وقال قولته المشهورة : « إن كان قال فقد صدق »[(٢)] .

---

(١) عن أنس رضى الله عنه قال : ما رأيت رجلاً قط أخذ بيد رسول الله ﷺ فيترك يده حتى يكون الرجل هو ينزع يده . أخرجه أبو الشيخ الأصبهانى فى « أخلاق النبى » (ص٢٩) .

(٢) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٦١) عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « لما أُسْرى بالنبى ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك ، فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه ، وسعوا بذلك إلى أبى بكر رضى الله عنه . فقالوا : هل لك فى صاحبك يزعم أنه أُسْرى به فى الليل إلى بيت المقدس . قال : أو قال ذلك ؟ قالوا : نعم . قال : لئن كان قال ذلكَ لقد صدق . قالوا : وتُصدِّقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح . قال : نعم ، إنى لأصدقه بما هو أبعد من ذلك ، أصدِّقه بخبر السماء فى غدوة أو روحة . فلذلك سُمِّى أبو بكر الصديق » . وكذا أخرجه الحاكم فى مستدركه (٣/٦٢ ، ٦٣) وقال : « صحيح الإسناد . ولم يخرجاه » .

إذن : عمدته أن يقول رسول الله ، وطالما قال فهو صادق ، هذه قضية مُسلَّم بها عند الصِّدِّيق رضى الله عنه .

ثم قال : « إنَّا لَنُصدقه فى أبعد من هذا ، نُصدِّقه فى خبر السماء (الوحى) ، فكيف لا نُصدِّقه فى هذا » ؟

إذن : الحق سبحانه جعل هذا الحادث مَحكّاً للإيمان ، ومُمحِّصاً ليقين الناس ، حتى يغربل مَنْ حول رسول الله ، ولا يبقى معه إلا أصحاب الإيمان واليقين الثابت الذى لا يهتز ولا يتزعزع .

لذلك قال تعالى فى آية أخرى :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِى أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ .. (٦٠) ﴾ [الإسراء]

وهذا دليل آخر على أن الإسراء لم يكُنْ مناماً ، فالإسراء لا يكون فتنة واختباراً إلا إذا كان حقيقة لا مناماً ، فالمنام لا يُكذِّبه أحد ولا يختلف فيه الناس .

لكن لماذا قال عن الإسراء (رُؤْيَا) يعنى المنامية ، ولم يقُلْ « رؤية » يعنى البصرية ؟

قالوا : لأنها لما كانت عجيبة من العجائب صارت كأنها رؤيا منامية ، فالرؤيا محل الأحداث العجيبة .

وورد فى الإسراء أحاديث كثيرة تكلَّم فيها العلماء : أكان بالروح والجسد ؟ أكان يقظة أم مناماً ؟ أكان من المسجد الحرام أم من بيت أم هانىء[1] ؟ ونحن لا نختلف مع هذه الآراء ، ونُوضِّح ما فيها من تقارب .

---

(١) هى : أم هانىء بنت أبى طالب الهاشمية ابنة عم النبى ﷺ . قيل : اسمها فاختة ، فاطمة ، هند . والأول أشهر . وكانت زوج هبيرة بن عمرو المخزومى . [الإصابة فى تمييز الصحابة (٢٨٧/٨)] .

فمن حيث : أكان الإسراء بالروح فقط أم بالروح والجسد ؟ فقد أوضحنا وَجْه الصواب فيه ، وأنه كان بالروح والجسد جميعاً ، فهذا مجال الإعجاز ، ولو كان بالروح فقط ما كان عجيباً ، وما كذَّبه كفار مكة .

أما مَنْ ذهب إلى أن الإسراء كان رؤيا منام ، فيجب أن نلاحظ أن أول الوحى لرسول الله ﷺ كان الرؤيا الصادقة ، فكان ﷺ لا يرى رُؤْيَا إلا وجاءت كفلَق الصبح[1] ، فرؤيا النبى ﷺ ليست كرؤيانا ، بل هى صدْق لا بُدّ أن يتحقّق . ومثال ذلك ما حدث ، مَنْ إرادة الله لهُ رؤْيا الفتح .

قال تعالى :

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ .. (٢٧) ﴾ [الفتح]

وقد أخبر ﷺ صحابته هذا الخبر ، فلما ردَّهم الكفار عند الحديبية ، فقال الصحابة لرسول الله : ألم تُبشِّرنا بدخول المسجد الحرام ؟ فقال : ولكن لم أقُلْ هذا العام[2] .

لذلك يسمون هذه الرُّؤى رؤى الإيناس ، وهى أن يرى النبى ﷺ

(١) عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « أول ما بُدىء به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم . فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣ ، ٣٣٩٢) كتاب بدء الوحى .

(٢) أورد هذا ابن كثير فى تفسيره (٢٠١/٤) ولفظه أن عمر بن الخطاب قال لرسول الله ﷺ : أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ فقال ﷺ : « بلى ، أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا ؟ » قال عمر : لا . فقال النبى ﷺ : « فإنك آتيه ومطوف به » .

الشيء مناماً ، حتى إذا ما تحقق لم يُفَاجأ به ، وكان له أُنْس به .
وما دام لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلَق الصبح فلا بُدَّ أن هذه الرؤيا ستأتى واقعاً وحقيقة ، وقد يرى هذه الرؤيا مرة أخرى على سبيل التذكرة بذلك الإيناس .

إذن : مَنْ قال : إن الإسراء كان مناماً نقول له : نعم كان رؤيا إيناس تحققتْ فى الواقع ، فلدينا رؤى الإيناس أولاً ، ورؤى التذكير بالنعمة ثانياً ، وواقع الحادث فى الحقيقة ثالثاً ، وبذلك نخرج من الخلاف حول : أكان الإسراء يقظة أم مناماً ؟

وحتى بعد انتهاء حادث الإسراء كانت الرؤيا الصادقة نوعاً من التسلية لرسول الله ﷺ ، فكان كلما اشتدتْ به الأهوال يُريه الله تعالى ما حدث له لِيُبيِّن له حفاوة السماء والكون به ﷺ ؛ ليكون جَلْداً يتحمل ما يلاقى من التعنت والإيذاء .

أما من قال : إن الإسراء كان من بيت أم هانىء ، فهذا أيضاً ليس محلاً للخلاف ؛ لأن بيت أم هانىء كان مُلاصِقاً للمطاف من المسجد الحرام ، والمطاف من المسجد .

إذن : لا داعى لإثارة الشكوك والخلافات حول هذه المعجزة ؛ لأن الفعل فِعْل الحق سبحانه وتعالى ، والذى يحكيه لنا هو الحق سبحانه وتعالى ، فلا مجالَ للخلاف فيه .

وقوله تعالى :

﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا..(١)﴾ [الإسراء]

المسجد الحرام هو بيت الله : الكعبة المشرفة ، وسُمِّى حراماً ؛ لأنه حُرِّم فيه ما لم يحرُمْ فى غيره من المساجد . وكل مكان يخصص لعبادة الله نسميه مسجداً ، قال تعالى :

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ..(١٨)﴾ [التوبة]

ويختلف المسجد الحرام عن غيره من المساجد ، أنه بيت لله باختيار الله تعالى ، وغيره من المساجد بيوت لله باختيار خَلْق الله ؛ لذلك كان بيت الله باختيار الله قِبْلة لبيوت الله باختيار خَلْق الله .

وقد يُراد بالمسجد المكان الذى نسجد فيه ، أو المكان الذى يصلح للصلاة ، كما جاء فى الحديث الشريف : « .. وجُعِلَتْ لى الأرض مسجداً وطهوراً »[(١)] .

أى : صالحة للصلاة فيها .

ولا بُدَّ أن نُفرِّق بينَ المسجد الذى حُيِّز وخُصِّص كمسجد مستقل ، وبين أرض تصلح للصلاة فيها ومباشرة حركة الحياة ، فالعامل يمكن أن يصلى فى مصنعه ، والفلاح يمكن أن يصلى فى مزرعته ، فهذه أرض تصلح للصلاة ولمباشرة حركة الحياة .

أما المسجد فللصلاة ، أو ما يتعلق بها من أمور الدين كتفسير آية ، أو بيان حكم ، أو تلاوة قرآن .. إلخ ولا يجوز فى المسجد مباشرة عمل من أعمال الدنيا .

---

(١) عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى المغانم ، ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يُبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٥) ومسلم فى صحيحه (٥٢١) .

لذلك حينما رأى النبى ﷺ رجلاً ينشد ضالته فى المسجد ، قال له : « لا رَدَّها الله عليك »[١] وقال لمن جلس يعقد صفقة فى المسجد : « لا بارك الله لك فى صفقتك »[٢] .

ذلك لأن المسجد خُصِّص للعبادة والطاعة ، وفيه يكون لقاء العبد بربه عز وجل ، فإياك أن تشغل نفسك فيه بأمور الدنيا ، ويكفى ما أخذتْه منك ، وما أنفقته فى سبيلها من وقت .

والمسجد لا يُسمَّى مسجداً إلا إذا كان بناءً مستقلاً من الأرض إلى السماء ، فأرضه مسجد ، وسماؤه مسجد ، لا يعلوه شيء من منافع الدنيا ، كمَنْ يبنى مسجداً تحت عمارة سكنية ، ودَعْكَ من نيته عندما خَصَّص هذا المكان للصلاة : أكانت نيته لله خالصة ؟ أم لمآرب دنيوى ؟

وقد قال تعالى :

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن]

فمثل هذا المكان لا يُسمَّى مسجداً ؛ لأنه لا تنطبق عليه شروط المسجد ، ويعلوه أماكن سكنية يحدث فيها ما يتنافى وقدسية المسجد ، وما لا يليق بحُرْمة الصلاة ، فالصلاة فى مثل هذا المكان كالصلاة فى أى مكان آخر من البيت .

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (٥٦٨) كتاب المساجد من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من سمع رجلاً ينشد ضالة فى المسجد فليقل : لا ردها الله عليك ، فإن المساجد لم تبن لهذا » .

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فى المسجد فقولوا : لا أربح الله تجارتك » أخرجه الترمذى فى سننه (١٣٢١) وقال : « حديث حسن غريب » .

لذلك يحرم على الطيار غير المسلم أن يُحلِّق فوق مكة ؛ لأن جوَّ الحرَم حَرَمٌ .

وقوله تعالى :

﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا..(١)﴾ [الإسراء]

فى بُعْد المسافة نقول : هذا قصىٌّ . أى : بعيد . وهذا أقصى أى : أبعد ، فالحق تبارك وتعالى كأنه يلفت أنظارنا إلى أنه سيوجد بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى مسجدٌ آخر قصىٌّ ، وقد كان فيما بعد مسجد رسول الله ﷺ .

فالمسجد الأقصى : أى : الأبعد ، وهو مسجد بيت المقدس .

وقوله سبحانه : ﴿بَارَكْنَا حَوْلَهُ..(١)﴾ [الإسراء]

البركة : أن يُؤتى الشئُ من ثمره فوقَ المأمول منه ، وأكثر مما يُظنّ فيه ، كأن تُعد طعاماً لشخصين ، فيكفى خمسة أشخاص ، فتقول : طعام مبارَك .

وقول الحق سبحانه :

﴿بَارَكْنَا حَوْلَهُ..(١)﴾ [الإسراء]

دليل على المبالغة فى البركة ، فإنْ كان سبحانه قد بارك ما حول الأقصى ، فالبركة فيه من باب أوْلى ، كأن تقول : مَنْ يعيشون حول فلان فى نعمة ، فمعنى ذلك أنه فى نعمة أعظم .

لكن بأىّ شئ بارك الله حوله ؟

لقد بارك الله حول المسجد الأقصى ببركة دنيوية ، وبركة دينية :

بركة دنيوية بما جعل حوله من أرض خِصْبة عليها الحدائق

والبساتين التى تحوى مختلف الثمار ، وهذا من عطاء الربوبية الذى يناله المؤمن والكافر .

وبركة دينية خاصة بالمؤمنين ، هذه البركة الدينية تتمثل فى أن الأقصى مَهْد الرسالات ومَهْبط الأنبياء ، تعطَّرَتْ أرضه بأقدام إبراهيم وإسحق ويعقوب وعيسى وموسى وزكريا ويحيى ، وفيه هبط الوحى وتنزلتْ الملائكة .

وقوله : ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا .. (١) ﴾ [الإسراء]

اللام هنا للتعليل .

كان مهمة الإسراء من مكة إلى بيت المقدس أن نُرِى رسول الله الآيات ، وكلمة : الآيات لا تُطلق على مطلق موجود ، إنما تطلق على الموجود العجيب ، كما نقول : هذا آية فى الحُسْن ، آية فى الشجاعة ، فالآية هى الشىء العجيب .

ولله عز وجل آيات كثيرة منها الظاهر الذى يراه الناس ، كما قال تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ .. (٣٧) ﴾ [فصلت]

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٣٢) ﴾ [الشورى]

والله سبحانه يريد أن يجعل لرسوله ﷺ خصوصية ، وأن يُريه من آيات الغيب الذى لم يَرَهُ أحد ، ليرى ﷺ حفاوة السماء به ، ويرى مكانته عند ربه الذى قال له :

﴿ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) ﴾ [النحل]

لأنك فى سَعة من عطاء الله ، فإن أهانك أهل الأرض فسوف يحتفل بك أهل السماء فى الملأ الأعلى ، وإنْ كنت فى ضيق من الخَلْق فأنت فى سَعة من الخالق .

وقوله : ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ①﴾ [الإسراء]

أى : الحق سبحانه وتعالى .

السمع : إدراك يدرك الكلام . والبصر : إدراك يدرك الأفعال والمرائى ، فلكل منهما ما يتعلق به .

لكن سميع وبصير لمن ؟

جاء هذا فى ختام آية الإسراء التى بيَّنَتْ أن الحق سبحانه جعل الإسراء تسلية للرسول ﷺ بعد ما لاقاه من أذى المشركين وعنتهم ، وكأن معركة دارت بين رسول الله والكفار حدثتْ فيها أقوال وأفعال من الجانبين .

ومن هنا يمكن أن يكون المعنى : (سَمِيعٌ) لأقوال الرسول (بَصِيرٌ) بأفعاله ، حيث آذاه قومه وكذبوه وألجؤوه إلى الطائف ، فكان أهلها أشدَّ قسوة من إخوانهم في مكة ، فعاد مُنكَرًا دامياً ، وكان من دعائه :

« اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك علىَّ غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تُنزل بى غضبك ، أو يحل علىَّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك »[1] .

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٤١٩ ، ٤٢٠) ، والبيهقى فى « دلائل النبوة » (٢/٤١٥) .

فالله سميع لقول نبيه ﷺ . وبصير لفعله .

فقد كان ﷺ فى أشدِّ ظروفه حريصاً على دعوته ، فقد قابل فى طريق عودته من الطائف عبداً ، فأعطاه عنقوداً من العنب ، وأخذ يحاوره فى النبوات ويقول : أنت من بلد نبى الله يونس بن متى[1] .

أو يكون المعنى : سميع لأقوال المشركين ، حينما آذوا سَمْع رسول الله وكذَّبوه وتجهمُّوا له ، وبصير بأفعالهم حينما آذوه ورَمَوْه بالحجارة .

الحق تبارك وتعالى تعرَّض لحادث الإسراء فى هذه الآية على سبيل الإجمال ، فذكر بدايته من المسجد الحرام ، ونهايته فى المسجد الأقصى ، وبين البداية والنهاية ذكر كلمة الآيات هكذا مُجْملة .

وجاء ﷺ ففسَّر لنا هذا المجمل ، وذكر الآيات التى رآها ، فلو لم يذكر لنا رسول الله ﷺ ما رأى من آيات الله لَقُلْنا : وأين هذه الآيات ؟

فالقرآن يعطينا اللقطة الملزمة لبيان الرسول ﷺ :

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩)﴾ [القيامة]

إذن : كان لا بُدَّ لتكتمل صورة الإسراء فى نفوس المؤمنين أن يقول الرسول ﷺ ما قال من أحاديث الإسراء .

---

(١) هذا العبد يُسمى عداس ، وهو غلام نصرانى ، قال له رسول الله ﷺ : من أهل أىِّ البلاد أنت يا عداس ، وما دينك ؟ قال : نصرانى ، وأنا رجل من أهل نينوى . فقال رسول الله ﷺ : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى . فقال له عداس : وما يدريك ما يونس ابن متى ؟ فقال رسول الله ﷺ : ذاك أخى ، كان نبياً وأنا نبى . فأكبَّ عدَّاس على رسول الله ﷺ يقبِّل رأسه ويديه وقدميه . [السيرة النبوية لابن هشام ٤٢١/٢] .

لكن يأتى المشكّكون وضعَاف الإيمان يبحثون فى أحاديث الإسراء عن مأخذ ، فيعترضون على المرائى التى رآها رسول الله ، وسأل عنها جبريل عليه السلام .

فكان اعتراضهم أن هذه الأحداث في الآخرة ، فكيف رآها محمد ﷺ ؟

ونقول لهؤلاء : لقد قصُرَتْ أفهامكم عن إدراك قدرة الله فى خَلْق الكون ، فالكون لم يُخلَق هكذا ، بل خُلِق بتقدير أزلى له ، ولتوضيح هذه المسألة نضرب هذا المثل :

هَبْ أنك أردتَ بناء بيت ، فسوف تذهب إلى المهندس المختص وتطلب منه رَسْماً تفصيلياً له ، ولو كنت ميسور الحال تقول له : اعمل لى (ماكيت) للبيت ، فيصنع لك نموذجاً مُصغَراً للبيت الذى تريده .

فالحق سبحانه خلق هذا الكون أزلاً ، فالأشياء مخلوقة عند الله (كالماكيت) ، ثم يبرزها سبحانه على وَفْق ما قدّره .

وتأمل قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس]

انظر : ﴿أَن يَقُولَ لَهُ﴾ كأن الشىء موجود والله تعالى يظهره فحسب ، لا يخلقه بداية ، بل هو مخلوق جاهز ينتظر الأمر ليظهر فى عالم الواقع ؛ لذلك قال أهل المعرفة : أمور يُبديها ولا يبتديها .

وإنْ كان الحق تبارك وتعالى قد ذكر الإسراء صراحة فى هذه الآية ، فقد ذكر المعراج بالالتزام فى سورة النجم ، فى قوله تعالى :

﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨)﴾ [النجم]

ففى الإسراء قال تعالى :

﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا.. (١)﴾ [الإسراء]

وفى المعراج قال :

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨)﴾ [النجم]

ذلك لأن الإسراء آية أرضية استطاع الرسولُ ﷺ بما آتاه الله من الإلهام أنْ يُدلِّل على صدْقه فى الإسراء به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ؛ لأن قومه على علم بتاريخه ، وأنه لم يسبق له أنْ رأى بيت المقدس أو سافر إليه ، فقالوا له : صِفْه لنا وهذه شهادة منهم أنه لم يَرَهْ ، فتحدَّوْهُ أن يصفه .

والرسول ﷺ حينما يأتى بمثل هذه العملية ، هل كان عنده استحفاظ كامل لصورة بيت المقدس ، خاصة وقد ذهب إليه ليلاً ؟

إذن : صورته لم تكن واضحة أمام النبى ﷺ بكل تفاصيلها ، وهنا تدخلتْ قدرة الله فجلاَّه الله له ، فأخذ يصفه لهم كأنه يراه الآن .

كما أن الطريق بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى طريق مسلوك للعرب ، فهو طريق تجارتهم إلى الشام ، فأخبرهم ﷺ أن عِيراً لهم فى الطريق ، ووصفها لهم وصفاً دقيقاً ، وأنها سوف تَصِلهم مع شروق شمس يوم مُعين .

وفعلاً تجمعوا فى صبيحة هذا اليوم ينتظرون العير . وعند الشروق قال أحدهم : ها هى الشمس أشرقتْ . فردَّ الآخر : وها هى العير قد ظهرت*[1] .

إذن : استطاع ﷺ أن يُدلِّل على صدق الإسراء ؛ لأنه آية أرضية يمكن التدليل عليها ، بما يَعْلمه الناس عن بيت المقدس ، وبما يعلمونه من عيرهم فى الطريق .

أما ما حدث فى المعراج ، فآيات كبرى سماوية لا يستطيع الرسول ﷺ التدليل عليها أمام قومه ، فأراد الحق سبحانه أنْ يجعل ما يمكن الدليل عليه من آيات الأرض وسيلة لتصديق ما لا يوجد دليل عليه من آيات الصعود إلى السماء ، وإلا فهل صعد أحد إلى سدرة المنتهى ، فيصفها له رسول الله ؟

إذن : آية الأرض أمكن أنْ يُدلّل عليها ، فإذا ما قام عليها الدليل ، وثبت للرسول خَرْق نواميس الكون فى الزمن والمسافة ، فإنْ حدّثكم عن شيء آخر فيه خَرْق للنواميس فصدِّقوه ، فكأن آية الإسراء جاءت

(١) وقد أورد ابن هشام فى السيرة النبوية (٤٠٢/١) من حديث أم هانيء أن النبى ﷺ قال : آية ذلك أنى مررت بعير بنى فلان بوادى كذا وكذا ، فانفرهم حسُّ الدابة ، فندَّ لهم بعير ، فدللتهم عليه ، وأنا مُوجّه إلى الشام ، ثم أقبلت حتى إذا كنت بضجنان مررت بعير بنى فلان ، فوجدت القوم نياماً ، ولهم إناء فيه ماء قد غطَّوْا عليه بشيء ، فكشفت غطاءه ، وشربت ما فيه ، ثم غطيت عليه كما كان ، وآية ذلك أن عيرهم الآن يصوبْ من البيضاء ثنية التنعيم ، يقدمها جمل أورق ، عليه غرارتان ، إحداهما سوداء ، والأخرى برقاء . قالت : فابتدر القوم الثنية فلم يلقهم أول من الجمل كما وصف لهم ، وسألوهم عن الإناء ، فأخبروهم أنهم وضعوه مملوءاً ماء ثم غطوه ، وأنهم هبوا فوجدوه مغطى كما غطوه ، ولم يجدوا فيه ماء . وسألوا الآخرين وهم بمكة ، فقالوا : صدق والله ، لقد أُنْفرنا فى الوادى الذى ذكر ، وندَّ له بعير ، فسمعنا صوت رجل يدعونا إليه ، حتى أخذناه .

لتُقرِّب للناس آية المعراج .

فالذى خرق له النواميس فى آيات الأرض من الممكن أنْ يخرق له النواميس فى آيات السماء ، فالله تعالى يُقرِّب الغيبيات ، التى لا تدركها العقول بالمحسَّات التى تدركها .

ومن ذلك ما ضربه إليه مثلاً محسوساً لمضاعفة النفقة فى سبيل الله إلى سبعمائة ضعف ، فأراد الحق سبحانه أنْ يُبيِّن ذلك ويُقرِّبه للعقول ، فقال :.

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) ﴾ [البقرة]

ومن لُطْف الله سبحانه بعقول خَلْقه أنْ جعل آيات الإسراء بالنصِّ الملزم الصريح ، لكن آيات المعراج جاءت بالالتزام فى سورة النجم ؛ لذلك قال العلماء : إن الذى يُكذِّب بالإسراء يكفر ، أما مَنْ يكذِّب بالمعراج فهو فاسق .

لكن أهل التحقيق يذهبون إلى تكفير مَنْ يُكذِّب المعراج أيضاً ؛ لأن المعراج وإنْ جاء بالالتزام فقد بيَّنه الرسول ﷺ فى حديثه الشريف ، والحق سبحانه يقول :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. (٧) ﴾ [الحشر]

والمتأمل فى الإسراء والمعراج يجده إلى جانب أنه تسلية لرسول الله وتخفيف عنه ، إلا أن لهم هدفاً آخر أبعد أثراً ، وهو بيان أن رسول الله ﷺ مُؤيَّد من الله ، وله معجزات ، وتُخرَق له القوانين

والنواميس العامة ؛ ليكون ذلك كله تكريماً ودليلاً على صدق رسالته .

فالمعجزة : أمر خارق للعادة الكونية يُجريه الله على يد رسوله ؛ ليكون دليلاً على صدقه ، ومن ذلك ما حدث لإبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ حيث ألقاه قومه فى النار ، ومن خواص النار الإحراق ، فهل كان المراد نجاة إبراهيم من النار ؟

لو كان القصد نجاته من النار ما كان الله مكَّنهم من الإمساك به ، ولو أمسكوا فيمكن أنْ يُنزل الله المطر فيطفىء النار .

إذن : المسألة ليست نجاة إبراهيم ، المسألة إثبات خَرْق النواميس لإبراهيم عليه السلام ، فشاء الله أنْ تظلَّ النار مشتعلة ، وأن يُمسكوا به ويرموه فى النار ، وتتوفر كل الأسباب لحرقه ـ عليه السلام .

وهنا تتدخل عناية الله لتظهر المعجزة الخارقة للقوانين ، فمن خواصّ النار الإحراق ، وهى خَلْق من خَلْق الله ، يأتمر بأمره ، فأمر اللهُ النارَ ألاَّ تحرق ، سلبها هذه الخاصية ، فقال تعالى :

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾ [الأنبياء]

وربما يجد المشكِّكون فى الإسراء والمعراج ما يُقرِّب هذ المعجزة لأفهامهم بما نشاهده الآن من تقدُّم علمى يُقرِّب لنا المسافات ، فقد تمكَّن الإنسان بسلطان العلم أنْ يغزوَ الفضاء ، ويصعد إلى كواكب أخرى فى أزمنة قياسية ، فإذا كان فى مقدور البشر الهبوط على سطح القمر ، أتستبعدون الإسراء والمعراج ، وهو فعْل لله سبحانه ؟!

وكذلك من الأمور التى وقفتْ أمام المعترضين على الإسراء

والمعراج حادثة شَقّ الصدر التى حكاها رسول الله ﷺ ، والمتأمل فيه يجده عـملاً طبيعـياً لإعداد الرسول ﷺ لـما هو مُقبل عليـه من أجواء ومواقف جديدة تختلف فى طبيعتها عن الطبيعة البشرية .

كيف ونحن نفعل مـثل هذا الإعداد حينما نسـافر من بلد إلى آخر ، فيـقولون لك : البس مـلابس كذا . وخذ حـقنة كذا لتسـاير طبيـعة هذا البلد ، وتتأقلم مـعه ، فما بالك ومحـمد ﷺ سيلتقى بالمـلائكة وبجبريل وهم ذوو طبيعة غير طبيعة البشر ، وسيلتقى بإخوانه من الأنبياء ، وهم فى حال الموت ، وسيكون قاب قوسيْن أو أدنى من ربه عز وجل ؟

إذن : لا غرابة فى أنْ يحدث له تغيير ما فى تكوينه ﷺ ليستطيع مباشرة هذه المواقف .

وإذا استـقرأنا القرآن الكريم فسـوف نجد فيه مـا يدلُّ على صدق رسـول الله فيـما أخـبر به من لقـائه بالأنبـياء فى هذه الرحلة ، قـال تعالى :

﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا .. (٤٥) ﴾ [الزخرف]

والرسول ﷺ إذا أمـره ربّه أمراً نفّذه ، فكيـف السبيل إلى تنفـيذ هذا الأمر : واسأل مَن سبقك من الرسل ؟

لا سبـيل إلى تنفيذه إلا فى لقـاء مباشر ومـواجهة ، فـإذا حدَّثنا بذلك رسـول الله فى رحلة الإسـراء والمـعـراج نقـول له : صـدقت ، ولا يتسلل الشكّ إلا إلى قلوب ضعاف الإيمان واليقين .

فالفكرة فى هذه القـضية ـ الإسراء والمعـراج ـ دائرة بين يقين

المؤمن بصدق رسول الله ، وبين تحكيم العقل ، وهل استطاع عقلك أنْ يفهم كل قضايا الكون من حولك ؟

فما أكثر الأمور التى وقف فيها العقل ولم يفهم كُنْهَها ، ومع مرور الزمن وتقدُّم العلوم رآها تتكشّف له تدريجياً ، فما شاء الله أنْ يُظهره لنا من قضايا الكون يسَّر لنا أسبابه باكتشاف أو اختراع ، وربما بالمصادفة .

وما العقل إلا وسيلة إدراك ، كالعين والأذن ، وله قوانين محددة لا يستطيع أنْ يتعدّاها ، وإياك أنْ تظنَّ أن عقلك يستطيع إدراك كل شيء ، بل هو محكوم بقانون .

ولتوضيح ذلك ، نأخذ مثلاً العين ، وهى وسيلة إدراك يحكمها قانون الرؤية ، فإذا رأيت شخصاً مثلاً تراه واضح الملامح ، فإذا ما ابتعد عنك تراه يصغُر تدريجياً حتى يختفى عن نظرك ، كذلك السمع تستطيع بأذنك أنْ تسمعَ صوتاً ، فإذا ما ابتعد عنك قَلَّ سمعك له ، حتى يتوقف إدراك الأذن فلا تسمع شيئاً .

كذلك العقل كوسيلة إدراك له قانون ، وليس الإدراك فيه مطلقاً .

ومن هنا لما أراد العلماء التغلُّب على قانون العيْن وقانون الأذن حينما تضعف هذه الحاسة وتعجز عن أداء وظيفتها صنعوا للعين النظارة والميكروسكوب والمجهر ، وهذه وسائل حديثة تُمكِّن العين من رؤية ما لا تستطيع رؤيته . وكذلك صنعوا سماعة الأذن لتساعدها على السمع إذا ضعفت عن أداء وظيفتها .

إذن : فكل وسيلة إدراك لها قانونها ، وكذلك العقل ، وإياك أنْ تظنَّ

أن عقلك يستطيع أن يدرس كل شيء ، ولكن إذا حُدِّثْتَ بشيء فعقلك ينظر فيه ، فإذا وثقته صادقاً فقد انتهت المسألة ، وخذ ما حدثت به على أنه صدق .

وهذا ما حدث مع الصِّدِّيق أبي بكر رضي الله عنه حينما حدثوه عن صاحبه ﷺ ، وأنه أُسرِى به من مكة إلى بيت المقدس ، فما كان منه إلا أن قال : « إن كان قال فقد صدق » .

فالحجة عنده إذن قول الرسول ، وما دام الرسول قد قال ذلك فهو صادق ، ولا مجال لعمل العقل في هذه القضية ، ثم قال : « كيف لا أُصدقه في هذا الخبر ، وأنا أصدقه في أكثر من هذا ، أصدقه في خبر الوحي يأتيه من السماء »[1] .

فآية الإسراء - إذن - كانت آية أرضية ، يمكن أنْ يُقام عليها الدليل ، ويمكن أن يفهم الناس عنها أن القانون قد خُرِق لمحمد في الإسراء ، فإذا ما أتى المعراج وخرق له القانون فيما لا يعلم الناس كان أدْعى لتصديقه .

والمتأمل في هذه السورة يجدها تسمى سورة الإسراء ، وتسمى سورة بني إسرائيل ، وليس فيها عن الإسراء إلا الآية الأولى فقط ، وأغلبها يتحدث عن بني إسرائيل ، فما الحكمة من ذِكْر بني إسرائيل بعد الإسراء ؟

سبق أن قلنا : إن الحكمة من الكلام عن الإسراء بعد آخر النحل

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٣٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها ، وكذا الحاكم في مستدركه (٣/ ٦٢) وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ووافقه الذهبي .

أن رسول الله ﷺ كان فى ضيق مما يمكرون ، فأراد الحق سبحانه أنْ يُخفف عنه ويُسلّيه ، فكان حادث الإسراء ، ولما ألفَ بنو إسرائيل أن الرسول يُبعَثُ إلى قومه فحسب ، كما رأوا موسى عليه السلام .

فعندما يأتى محمد ﷺ ويقول : أنا رسول للناس كافّة سيعترض عليه هؤلاء وسيقولون : إنْ كنتَ رسولاً فعلاً وسلَّمنا بذلك ، فأنت رسول للعرب دون غيرهم ، ولا دَخْل لك ببنى إسرائيل ، فلّنا رسالتنا وبيت المقدس علَم لنا .

لذلك أراد الحق سبحانه أن يلفت بنى إسرائيل إلى عموم رسالة محمد ﷺ ، ومن هنا جعل بيت المقدس قبلةً للمسلمين فى بداية الأمر ، ثم أسرى برسوله ﷺ إليه ؛ ليدلل بذلك على أن بيت المقدس قد دخل فى مقدسات الإسلام ، وأصبح منذ هذا الحدث فى حَوْزة المسلمين .

ثم يبدأ الحديث عن موسى عليه السلام وعن بنى إسرائيل ، فيقول تعالى :

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ﴾

قوله : ﴿ وآتَيْنَا ﴾ أى : أوحينا إليه معانيه ، كما قال تعالى :

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ..(٥١)﴾ [الشورى]

فليس فى هذا الأمر مباشرة .

و (الكتاب) هو التوراة ، فلو اقترن بعيسى فهو الإنجيل ، وإنْ أُطلِق دون أن يقترنَ بأحد ينصرف إلى القرآن الكريم .

والوَحْى قد يكون بمعانى الأشياء ، ثم يُعبِّر عنها الرسول بألفاظه ، أو يعبر عنها رجاله وحواريوه بألفاظهم .

ومثال ذلك : الحديث النبوى الشريف ، فالمعنى فيه من الحق سبحانه ، واللفظ من عند الرسول ﷺ ، وهكذا كان الأمر فى التوراة والإنجيل .

فإن قال قائل : ولماذا نزل القرآن بلفظه ومعناه ، فى حين نزلت التوراة والإنجيل بالمعنى فقط ؟

نقول : لأن القرآن نزل كتاب منهج مثل التوراة والإنجيل ، ولكنه نزل أيضاً كتاب معجزة لا يستطيع أحد أنْ يأتىَ بمثله ، فلا دَخْلَ لأحد فيه ، ولا بُدَّ أنْ يظلَّ لفظه كما نزل من عند الله سبحانه وتعالى .

فالرسول ﷺ أُوحِىَ إليه لَفْظُ ومعنى القرآن الكريم ، وأُوحِى إليه معنى الحديث النبوى الشريف .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِى إِسْرَائِيلَ .. ② ﴾ [الإسراء]

فهذا الكتاب لم ينزل لموسى وحده ، بل لِيُبلِّغه لبنى إسرائيل ،

وليرسمَ لهم طريق الهدى إلى الله سبحانه ، وقال تعالى فى آية أخرى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ[1] مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣) ﴾ [السجدة]

والهُدَى : هو الطريق الموصِّل للغاية من أقصر وجه ، وبأقلّ تكلفة ، وهو الطريق المستقيم ، ومعلوم عند أهل الهندسة أن الخط المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين .

ثم أوضح الحق سبحانه وتعالى خلاصة هذا الكتاب ، وخلاصة هذا الهدى لبنى إسرائيل فى قوله تعالى :

﴿ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً (٢) ﴾ [الإسراء]

ففى هذه العبارة خلاصة الهُدى ، وتركيز المنهج وجِمَاعه .

والوكيل : هو الذى يتولّى أمرك ، وأنت لا تُولِّى أحداً أمرك إلا إذا كنتَ عاجزاً عن القيام به ، وكان مَنْ تُوكِّله أحكمَ منك وأقوى ، فإذا كنت ترى الأغيار تنتاب الناس من حولك وتستولى عليهم ، فالغنى يصير فقيراً ، والقوى يصير ضعيفاً ، والصحيح يصير سقيماً .

وكذلك ترى الموت يتناول الناس واحداً تلْو الآخر ، فاعلم أن هؤلاء لا يصلحون لتولِّى أمرك والقيام بشأنك ، فربما وكَّلْتَ واحداً منهم ففاجأك خبر موته .

إذن : إذا كنتَ لبيباً فوكِّل مَنْ لا تنتابه الأغيار ، ولا يدركه

---

(١) المرية : الجدل والشك . [القاموس القويم ٢/ ٢٢٤] .

الموت ؛ ولذلك فالحق سبحانه حينما يُعلمنا أن نكون على وعى وإدراك لحقائق الأمور ، يقول :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لا يَمُوتُ (٥٨) ﴾ [الفرقان]

وما دام الأمر كذلك ، فإياك أنْ تتخذ من دون الله وكيلاً ، حتى لو كان هذا الوكيل هو الواسطة بينك وبين ربك كالأنبياء ؛ لأنهم لا يأتون بشىء من عند أنفسهم ، بل يناولونك ويُبلِّغونك عن الله سبحانه .

ولذلك الحق سبحانه يقول :

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ .. (٨٦) ﴾ [الإسراء]

ولو شئنا ما أوحينا إليك أبداً ، فمن أين تأتى بالمنهج إذن ؟

وقد تحدث العلماء طويلاً فى (أن) فى قوله :

﴿ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِى وَكِيلاً (٢) ﴾ [الإسراء]

فمنهم مَنْ قال : إنها ناهية . ومنهم من قال : نافية ، وأحسن ما يُقال فيها : إنها مُفسِّرة لما قبلها من قوله تعالى :

﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى .. (٢) ﴾ [الإسراء]

ففسرت الكتاب والهدى ولخَّصتْه ، كما فى قوله تعالى :

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَـٰآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ (١٢٠) ﴾ [طه]

فقوله : ﴿ قَالَ يَا آدَمُ ﴾ تُفسِّر لنا مضمون وسوسة الشيطان .

ومثله قوله تعالى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ.. ﴿٧﴾ ﴾ [القصص]

(فأنْ) هنا مُفسِّرة لما قبلها . وكأن المعنى : وأوحينا إليه ألاَّ تتخذوا من دونى وكيلاً .

أو نقول : إن فيها معنى المصدرية ، وأنْ المصدرية قد تُجرّ بحرف جر كما نقول : عجبت أنْ تنجحَ ، أى : من أنْ تنجح ، ويكون معنى الآية هنا : وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل لأنْ لا تتخذوا من دونى وكيلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾

(ذرية) منصوبة هنا على الاختصاص لقصْد المدح ، فالمعنى : أخصكم أنتم يا ذرية نوح ، ولكن لماذا ذرية نوح بالذات ؟

ذلك لأننا نجَّيْنَا الذين آمنوا معه من الطوفان والغرق ، وحافظنا على حياتهم ، وأنتم ذريتهم ، فلا بُدَّ لكم أنْ تذكروا هذه النعمة لله تعالى ، أنّ أبقاكم الآن من بقاء آبائكم .

فكأن الحق سبحانه يمتنّ عليهم بأنْ نجَّى آباءهم مع نوح ، فليستمعوا إلى منهج الله الذى جرَّبه آباؤهم ، ووجدوا أن مَنْ يؤمن بالله تكون له النجاة والأمن من عذاب الله .

ويقول تعالى :

﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ③ ﴾ [الإسراء]

أى : أن الحق سبحانه أكرم ذريته ؛ لأنه كان عبداً شكوراً ، والعمل الصالح ينفع ذرية صاحبه ؛ ولذلك سنلاحظ ذرية نوح بعنايتنا ، ولن نتركهم يتخبّطون فى متاهات الحياة ، وسنرسل لهم الهدى الذى يرسم لهم الطريق القويم ، ويُجنّبهم الزَّلل والانحراف .

ودائماً ما ينشغل الآباء بالأبناء ، فإذا ما توفّر للإنسان قُوت يومه تطلّع إلى قُوت العام كله ، فإذا توفّر له قوت عامه قال : أعمل لأولادى ، فترى خير أولاده أكثر من خَيْره ، وتراه ينشغل بهم ، ويُؤْثِرهم على نفسه ، ويترقّى فى طلب الخير لهم ، ويودُّ لو حمل عنهم كل تعب الحياة ومشاقها .

ومع ذلك ، فالإنسان عُرْضَة للأغيار ، وقد يأتيه أجله فيترك وراءه كل شيء ؛ ولذلك فالحق سبحانه يدلّنا على وَجْه الصواب الذى ينفع الأولاد ، فيقول تعالى :

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ⑨ ﴾ [النساء]

والحق تبارك وتعالى حينما يُعلّمنا أن تقوى الله تتعدّى بركتها إلى أولادك من بعدك ، يعطينا مثلاً واقعياً فى قصة موسى والخضر عليهما السلام ـ التى حكاها لنا القرآن الكريم .

والشاهد فيها أنهما حينما مرّا على قرية ، واستطعما أهلها فأبَوْا أنْ يُضيّفوهما ، وسؤال الطعام يدل على صِدْق الحاجة ، فلو طلب منك السائل مالاً فقد تتهمه بكَنْزِه ، أما إذا طلب منك رغيفاً يأكله فلا شكّ

أنه صادق فى سؤاله ، فهذا دليل على أنها قرية لِئَام لا يقومون بواجب الضيافة ، ولا يُقدِّرون حاجة السائل .

ومن هنا تعجَّبَ موسى ـ عليه السلام ـ من مبادرة الخضْر إلى بناء الجدار الذى أوشك على السقوط دون أنْ يأخذ أجْره مَن هؤلاء اللئام :

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) ﴾ [الكهف]

وهنا يكشف الخضر لموسى حقيقة الأمر ، ويُظهر له ما أطلعه الله عليه من بواطن الأمور التى لا يدركها موسى عليه السلام ، فيقول :

﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ .. (٨٢) ﴾ [الكهف]

فالجدار مِلْك لغلامين صغيرين لا يقدران على حماية مالهما من هؤلاء اللئام ، ولأن أباهما كان صالحاً سخَّر الله لهما مَنْ يخدمهما ، ويحافظ على مالهما .

إذن : فعلّة هذا العمل أن أباهما كان صالحاً ، فأكرمهم الله من أجله ، وجعلهما فى حيازته وحفظه .

وهنا قد يسأل سائل : ومن أين للغلامين أن يعلما بأمر هذا الكنز عند بلوغهما ؟

والظاهر أن الخضر بما أعطاه الله من الحكمة بنى هذا الجدار بناءً موقوتاً ، بحيث ينهدم بعد بلوغ الغلامين ، فيكونان قادريْنِ على حمايته والدفاع عنه .

والحق سبحانه وتعالى يوضح لنا هذه القضية فى آية أخرى ، فيقول سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم[1] مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ (٢١) ﴾ [الطور]

فكرامةً للآباء نلحق بهم الأبناء ، حتى وإنْ قَصَّروا فى العمل عن آبائهم ، فنزيد فى أجر الأبناء ، ولا ننقص من أجر الآباء .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣) ﴾ [الإسراء]

وشكور صيغة مبالغة فى الشكر ، فلم يَقل شاكر ؛ لأن الشاكر الذى يشكر مرة واحدة ، أما الشكور فهو الدائب على الشكر المداوم عليه ، وقالوا عن نوح عليه السلام : إنه كان لا يتناول شيئاً من مُقوِّمات حياته إلا شكر الله عليها . ولا تنعَّم بنعمة من ترف الحياة إلا حمد الله عليها ، فإذا أكل قال : الحمد لله الذى أطعمنى من غير حول منى ولا قوة ، وإذا شرب قال : الحمد لله الذى سقانى من غير حول منى ولا قوة ، وهكذا فى جميع أمره[2] .

---

(١) لاته يليته حقه ليتاً : نقصه ولم يؤده كاملاً ، قال تعالى : ﴿ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا (١٤) ﴾ [الحجرات] أى : لا ينقصكم شيئاً من ثوابها . [القاموس القويم ٢/٢٠٩] .

(٢) ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٣٩٤١) من قول عمران بن سليم قال : إنما سُمى نوحاً عبداً شكوراً لأنه كان إذا أكل قال : الحمد لله الذى أطعمنى ولو شاء لأجاعنى . وإذا شرب قال : الحمد لله الذى سقانى ولو شاء لأظمأنى . وإذا اكتسى قال : الحمد لله الذى كسانى ولو شاء لأعرانى ، وإذا احتذى قال : الحمد لله الذى حذانى ولو شاء لأحفانى ، وإذا قضى حاجته قال : الحمد لله الذى أخرج عنى الأذى ولو شاء لحبسه فىّ .

ويقول بعض العارفين : ما أكثر ما غفل الإنسان عن شكر الله على نعمه .

ونرى كثيراً من الناس قصارى جَهْدهم أن يقولوا : بسم الله فى أول الطعام والحمد لله فى آخره ، ثم هم غافلون عن نعم كثيرة لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى ، تستوجب الحمد والشكر .

لذلك حينما يعقل الإنسان ويفقه نعَم الله عليه ، ويعلم أن الحمد قَيْد للنعمة ، تجده يعمل ما نُسمِّيه حَمْد القضاء مثل الصلاة القضاء أى : حمد الله على نعم فاتت لم يحمده عليها ، فيقول : الحمد لله على كل نعمة أنعمتَها علىَّ يا ربِّ ، ونسيت أنْ أحمدَك عليها ، ويجعل هذا الدعاء دأْبه وديدنه .

وقد يتعدى حمدَ الله لنفسه ، فيحمد الله عن الناس الذين أنعمَ الله عليهم ولم يحمدوه ، فيقول : الحمد لله عن كل ذى نعمة أنعمتَ عليه ، ولم يحمدك عليها .

ولذلك يقولون : إن النعمة التى تحمد الله عليها لا تُسأل عنها يوم القيامة ؛ لأنك أدَّيْتَ حقها من حَمْد الله والثناء عليه .

والحمد والشكر وإنْ كان شكراً للمنعم سبحانه وثناء عليه ، فهو أيضاً تجارة رابحة للشاكر ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ⑦﴾ [إبراهيم]

فمَنْ أراد الخير لنفسه وأحب أن نواصل له النعم فليداوم على حمدنا وشكرنا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَضَيْنَآ (١) إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ ﴾

قوله تعالى :

﴿ وَقَضَيْنَا .. ﴿٤﴾ ﴾ [الإسراء]

أى : حكمنا حُكْماً لا رجعة فيه ، وأعلنَّا به المحكوم عليه ، والقاضى الذى حكم هنا هو الحق سبحانه وتعالى.

والقضاء يعنى الفَصْل فى نزاع بين متخاصمين ، وهذا الفَصْل لا بُدَّ له من قاضٍ مُؤهَّل ، وعلى علم بالقانون الذى يحكم به ، ويستطيع الترجيح بين الأدلة .

إذن : لا بُد أن يكون القاضى مُؤهّلاً ، ولو فى عُرْف المتنازعين ، ويمكن أن يكونوا جميعاً أميِّين لا يعرفون عن القانون شيئاً ، لكنهم واثقون من شخص ما ، ويعرفون عنه قَوْل الحق والعدل فى حكومته ، فيرتضونه قاضياً ويُحكِّمونه فيما بينهم .

ثم إن القاضى لا يحكم بعلمه فحسب ، بل لا بُدَّ له من بينة على المدعى أن يُقدّمها أو اليمين على مَنْ أنكر ، والبينة تحتاج إلى سماع الشهود ، ثم هو بعد أن يحكم فى القضية لا يملك تنفيذ حكمه ، بل

---

(١) قضينا : أعلمنا وأخبرنا . قاله ابن عباس . وقال قتادة : حكمنا . وأصل القضاء الإحكام للشيء والفراغ منه . وقيل : قضينا أوحينا . [تفسير القرطبى ٥/٣٩٤٢] .

هناك جهة أخرى تقوم بتنفيذ حكمه ، ثم هو فى أثناء ذلك عُرْضة للخداع والتدليس وشهادة الزور وتلاعب الخصوم بالأقوال والأدلة .

وقد يستطيع الظالم أنْ يُعمِّى عليه الأمر ، وقد يكون لبقاً متكلماً يستميل القاضى ، فيحوِّل الحكم لصالحه ، كل هذا يحدث فى قضاء الدنيا .

فما بالك إذا كان القاضى هو رب العزة سبحانه وتعالى ؟

إنه سبحانه وتعالى القاضى العدل الذى لا يحتاج إلى بيِّنة ولا شهود ، ولا يقدر أحد أنْ يُعمِّى عليه أو يخدعه ، وهو سبحانه صاحب كل السلطات ، فلا يحتاج إلى قوة أخرى تنفذ ما حكم به ، فكل حيثيات الأمور موكولة إليه سبحانه .

وقد حدث هذا فعلاً فى قضاء قضاه النبى ﷺ ، وهل القضاة أفضل من رسول الله ؟!

ففى الحديث الشريف : « إنما أنا بشر مثلكم ، وإنكم تختصمون إلىَّ ، ولعل أحدكم أن يكون ألحن(١) بحجته فأقضى له ، فمَنْ قضيت له من حق أخيه شيئاً ، فلا يأخذه ؛ فإنما أقطع له قطعة من النار »(٢) .

فردَّ ﷺ الحكم إلى ذات المحكوم له ، ونصحه أنْ يراجعَ نفسه وينظر فيما يستحق ، فالرسول ﷺ بشر يقضى كما يقضى البشر ، ولكن إنْ عمَّيْتَ على قضاء الأرض فلن تُعمِّى على قضاء السماء .

---

(١) ألحن بحجته : أى أفطن له وأجدل . واللحن : الفطنة . [لسان العرب مادة : لحن] .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧١٣) كتاب الأقضية من حديث أم سلمة رضى الله عنها .

ولذلك يقول ﷺ فيمَنْ يستفتى شخصاً فيفتيه فتوى تخالف الحق وتجانب الصواب :

« استفتِ قلبك ، وإنْ أفتوْكَ ، وإنْ أفتوْكَ ، وإنْ أفتوْكَ »(١) .

قالها ثلاثاً ليلفتنا إلى ضرورة أن يكون الإنسان واعياً مُميِّزاً بقلبه بين الحلال والحرام ، وعليه أن يُراجع نفسه ويتدبر أمره .

وقوله : ﴿فِي الْكِتَابِ.. (٤)﴾ [الإسراء]

أى : فى التوراة ، كتابهم الذى نزل على نبيهم ، وهم محتفظون به وليس فى كتاب آخر ، فالحق سبحانه قضى عليهم . أى : حكم عليهم حُكْماً وأعلمهم به ، حيث أوحاه إلى موسى ، فبلّغهم به فى التوراة ، وأخبرهم بما سيكون منهم من ملابسات استقبال منهج الله على ألسنة الرسل ، أيُنفذونه وينصاعون له ، أم يخرجون عنه ويفسدون فى الأرض ؟

وإذا كان رسولهم ـ عليه السلام ـ قد أخبرهم بما سيحدث منهم ، وقد حدث منهم فعلاً ما أخبرهم به الرسول وهم مختارون ، فكان عليهم أنْ يخجلوا من ربهم عز وجل ، ولا يتمادوا فى تصادمهم بمنهج الله وخروجهم عن تعاليمه ، وكان عليهم أن يصدقوا رسولهم فيما أخبرهم به ، وأنْ يُطيعوا أمره .

---

(١) عن وابصة بنْ معبد أن رسول الله ﷺ قال له : يا وابصة ، استفت نفسك ، البر ما اطمأن إليه القلب ، واطمأنت إليه النفس ، والإثم ما حاك فى القلب وتردد فى الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك . أخرجه أحمد فى المسند (٤/٢٢٨) والدارمى فى سننه (٢/٢٤٦) .

وقوله تعالى :

﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ..④﴾ [الإسراء]

جاءتْ هـذه العبـارة هكذا مُؤكّـدة باللام ، وهذا يعنى أن فى الآية قَسَمـاً دَلَّ عليه جوابه ، فكأن الحق سبـحانه يقول : ونفسى لتـفسدن فى الأرض ، لأن القسَم لا يكون إلا بالله .

أو نقول : إن المعنى : ما دُمْنا قد قـضينا وحكمنا حُكْماً مُؤكّداً ، لا يسـتطيع أحـد الفكَاك منه ، فـفى هذا مـعنى القـسَم ، وتكون هذه العبـارة جواباً لـ « قـضينا » ؛ لأن القسَـم يجىء للتأكيـد ، والتأكـيد حاصل فى قوله تعالى :

﴿وَقَضَيْنَا..④﴾ [الإسراء]

فما هو الإفساد ؟

الإفسـاد : أن تعمد إلى الصالح فى ذاته فـتُخرجه عن صـلاحه ، فكُلُّ شىء فى الكون خلقه الله تعـالى لغاية ، فإذا تركتَه ليـؤدىَ غايته فقـد أبقيـته على صـلاحه ، وإذا أخللْتَ به يفـقد صـلاحه ومـهمـته ، والغاية التى خلقه الله من أجلها .

والحق سبـحانه وتعالى قـبل أنْ يخلقنا على هذه الأرض خلق لنا مُقـوّمات حـياتنا فى السـماء والأرض والشمس والهـواء .. إلخ وليس مقومات حياتنا فحسب ، بل وأعدَّ لنا فى كَوْنه ما يُمكّن الإنسان بعقله وطاقته أن يَـزيدَ الصالح صلاحاً ، فـعلى الأقل إنْ لم تستطع أن تزيد الصالح صلاحاً فأبْقِ الصالح على صلاحه .

فمثلاً ، عندك بئر محفورة تخرج لك الماء ، فإما أنْ تحتفظَ بها على حالها فلا تطمسها ، وإما أنْ تزيدَ في صلاحها بأنْ تبنيَ حولها ما يحميها من زحف الرمال ، أو تجعل فيها آلة رفع للماء تضخُّه في مواسير لتسهُل على الناس استعماله ، وغير ذلك من أوْجُه الصلاح .

ولذلك الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا..(٦١)﴾ [هود]

أي : أنشأكم من الأرض ، وجعل لكم فيها مُقوّمات حياتكم ، فإنْ أحببتَ أنْ تُثرى حياتك فأعملْ عقلك المخلوق لله ليفكر ، والطاقة المخلوقة في أجهزتك لتعمل في المادة المخلوقة لله في الكون ، فأنت لا تأتي بشيء من عندك ، فقط تُعمل عقلك وتستغل الطاقة المخلوقة لله ، وتتفاعل مع الأرض المخلوقة لله ، فتعطيك كل ما تتطلع إليه وكل ما يُثرِي حياتك ، ويُوفّر لك الرفاهية والترقي .

فالذين اخترعوا لنا صهاريج المياه أعملُوا عقولهم ، وزادوا الصالح صلاحاً ، وكم فيها من مَيْزات وفَّرت علينا عناء رفع المياه إلى الأدوار العليا ، وقد استنبط هؤلاء فكرة الصهاريج من ظواهر الكون ، حينما رأوا السيل ينحدر من أعلى الجبال إلى أسفل الوديان ، فأخذوا هذه الفكرة ، وأفلحوا في عمل يخدم البشرية .

وكما يكون الإفساد في الماديات كمَنْ أفسدوا علينا الماء والهواء بالملوّثات ، كذلك يكون في المعنويات ، فالمنهج الإلهي الذي أنزله الله تعالى لهداية الخلق وألزمنا بتنفيذه ، فكونُك لا تنفذ هذا المنهج ، أو تكتمه ، أو تُحرّف فيه ، فهذا كله إفساد لمنهج الله تعالى .

ويقول تعالى لبنى إسرائيل :

﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ..﴿٤﴾﴾ [الإسراء]

وهل أفسد بنو إسرائيل فى الأرض مرتين فقط ؟

والله إنْ كانوا كذلك فقد خلاهم ذم ، والأمر إذن هيِّن ، لكنهم أفسدوا في الأرض إفساداً كثيراً متعدداً ، فلماذا قال تعالى : مرتين ؟

تحدّث العلماء كثيراً عن هاتين المرتين[1] ، وفى أىّ فترات التاريخ حدثتا ، وذهبوا إلى أنهما قبل الإسلام ، والمتأمل لسورة الإسراء يجدها قد ربطتهم بالإسلام ، فيبدو أن المراد بالمرتين أحداثٌ حدثتْ منهم فى حضْن الإسلام .

فالحق سبحانه وتعالى بعد أن ذكر الإسراء ذكر قصة بنى إسرائيل ، فدلّ ذلك على أن الإسلام تعدّى إلى مناطق مُقدّساتهم ، فأصبح بيت المقدس قبْلة للمسلمين ، ثم أُسْرِى برسول الله ﷺ إليه ، وبذلك دخل فى حَوْزة الإسلام ؛ لأنه جاء مهيمناً على الأديان السابقة ، وجاء للناس كافة .

إذن : كان من الأوْلى أن يُفسِّروا هاتين المرتين على أنهما فى

---

(١) ذكر السيوطى فى الدر المنثور (٥/٢٣٩) آثاراً فى تفسير هذه الآية ، فقال :

- أخرج ابن عساكر فى تاريخه عن على بن أبى طالب قال : الأولى : قتل زكريا عليه الصلاة والسلام . والأخرى : قتل يحيى عليه السلام .

- وأخرج ابن أبى حاتم عن عطية العوفى قال : أفسدوا المرة الأولى ، فبعث الله عليهم جالوت فقتلهم ، وأفسدوا المرة الثانية ، فقتلوا يحيى بن زكريا فبعث الله عليهم بختنصر .

حضن الإسلام ؛ لأنهم أفسدوا كثيراً قبل الإسلام ، ولا دَخْلَ للإسلام في إفسادهم السابق ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) ﴾ [الإسراء]

فإنْ كان الفساد مُطْلقاً . أي : قبل أن يأتي الإسلام فقد تعدَّد فسادهم ، وهل هناك أكثر من قولهم بعد أن جاوز بهم البحر فرأوا جماعة يعكفون على عبادة العجل ، فقالوا لموسى ـ عليه السلام :

﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ (١٣٨) ﴾ [الأعراف]

هل هناك فساد أكثر من أنْ قتلوا الأنبياء الذين جعلهم الله مُثُلاً تكوينية وأُسْوة سلوكية ، وحرَّفوا كتاب الله ؟

والناظر في تحريف بني إسرائيل للتوراة يجد أنهم حرَّفوها من وجوه كثيرة وتحريفات متعددة ، فمن التوراة ما نسوه ، كما قال تعالى :

﴿ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ .. (١٣) ﴾ [المائدة]

والذي لم ينسَوْهُ لم يتركوه على حاله ، بل كتموا بعضه ، والذي لم يكتموه لم يتركوه على حاله ، بل حرَّفوه ، كما قال تعالى :

﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ .. (١٣) ﴾ [المائدة]

ولم يقف الأمر بهم عند هذا النسيان والكتمان والتحريف ، بل تعدَّى إلى أن أتَوا بكلام من عند أنفسهم ، وقالوا هو من عند الله ، قال تعالى :

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً..(٧٩)﴾ [البقرة]

فهل هناك إفساد فى منهج الله أعظم من هذا الإفساد ؟

ومن العلماء مَنْ يرى أن الفساد الأول ما حدث فى قصة طالوت وجالوت فى قوله تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِىٍّ(١) لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا..(٢٤٦)﴾ [البقرة]

فقد طلبوا القتال بأنفسهم وارتضَوْه وحكموا به ، ومع ذلك حينما جاء القتال تنصَّلوا منه ولم يقاتلوا .

ويرون أن الفساد الثانى قد حدث بعد أن قويَتْ دولتهم ، واتسعتْ رقعتها من الشمال إلى الجنوب ، فأغار عليهم بختنصَّر وهزمهم ، وفعل بهم ما فعل .

وهذه التفسيرات على أن الفسادَيْن سابقان للإسلام ، والأوْلى أن

---

(١) اختُلف فى تحديد من هو هذا النبى على أقوال منها :
- إنه يوشع بن نون . قاله قتادة .
- إنه شمعون . قاله السدى .
- إنه شمويل ، قاله مجاهد ووهب بن منبه . ذكره ابن كثير فى التفسير (١/٣٠٠) .
يقول فضيلة الشيخ الشعراوى ـ رحمه الله ـ فى تفسير هذه الآية (٢/١٠٥٦) : « لا يعنينا ذلك ، لأن القرآن لا يذكر فى أى عهد كانوا ، المهم أنهم كانوا بعد موسى عليه السلام » .

نقول : إنهما بعد الإسلام ، وسوف نجد فى هذا رَبْطاً لقصة بنى إسرائيل بسورة الإسراء .

كيف ذلك ؟

قالوا : لأن الإسلام حينما جاء كان يستشهد بأهل الكتاب على صدق محمد ﷺ ، ونفس أهل الكتاب كانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، فكان أهل الكتاب إذا جادلوا الكفار والمشركين فى المدينة كانوا يقولون لهم : لقد أظلَّ زمان نبى يأتى فنتبعه ، ونقتلكم به قتل عاد وإرم[1] .

لذلك يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ : إنهم ينكرون عليك أن الله يشهد ومَنْ عنده علم الكتاب ، فمَنْ عنده علم الكتاب منهم يعرف بمجيئك ، وأنك صادق ، ويعرف علامتك ، بدليل أن الصادقين منهم آمنوا بمحمد ﷺ .

ويقول أحدهم[2] : لقد عرفته حين رأيته كمعرفتى لابنى ، ومعرفتى لمحمد أشد ، لأنه قد يشك فى نسبة ولده إليه ، ولكنه لا يشك فى شخصية الرسول ﷺ لمَا قرأه فى كتبهم ، وما يعلمه من أوصافه ، لأنه ﷺ موصوف فى كتبهم ، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم .

إذن : كانوا يستفتحون برسول الله على الذين كفروا ، وكانوا

---

(١) قال تعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة] .

(٢) هو : عبد الله بن سلام . قال له عمر : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر . ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/ ١٩٤) وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (١/ ٣٥٧) للثعلبى من طريق السدى الصغير عن الكلبى عن ابن عباس .

مستشرفين لمجيئه ، وعندهم مُقدّمات لبعثته ﷺ .

ومع ذلك :

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. (٨٩)﴾ [البقرة]

فلما كفروا به ، ماذا كان موقفه ﷺ بعد أن هاجر إلى المدينة ؟

في المدينة أبرم رسول الله ﷺ معهم معاهدة يتعايشون بموجبها ، ووفّى لهم رسول الله ما وفّوا ، فلما غدروا هم ، واعتدوا على حرمات المسلمين وأعراضهم ، جاس[1] رسول الله ﷺ خلال ديارهم ، وقتل منهم مَنْ قَتل ، وأجلاهم عن المدينة إلى الشام وإلى خيبر ؛ وكان هذا بأمر من الله تعالى لرسوله ﷺ ، فقال تعالى :

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢)﴾ [الحشر]

وهذا هو الفساد الأول الذي حدث من يهود بني النضير ، وبني قَيْنقاع ، وبني قريظة ، الذين خانوا العهد مع رسول الله ، بعد أن كانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، ونصُّ الآية القادمة يُؤيِّد ما نذهب إليه من أن الإفسادتين كانتا بعد الإسلام .

---

(١) جاسوا : ذهبوا وجاءوا في الأرض . وفي الصحاح : جاسوا خلال الديار أي : فطافوا في خلال الديار ينظرون هل بقي أحد لم يقتلوه . [لسان العرب - مادة : جوس] .